218067 - بيان حال السلف في مزاولة أعمال الدنيا .

السؤال

كيف كان حال الصحابة مع العمل ؟ وهل كانوا يعملون أغلب اليوم ، كحال بعض الأعمال في هذا الزمان ؟
وهل كانوا يعملون بالليل ، وقت صلاة الليل والتنزل الإلهي ؟
وهل من يعمل لساعات طوال ، يعتبر عبدا للدينار والدرهم ؟

الإجابة المفصلة

أولا :
كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يعملون ، ويزاولون الكثير من الحِرف والمهن ،
فمنها : التجارة ، ومنها : الزراعة ، ومنها : الأعمال المهنية ، كالحدادة والنجارة
وغيرهما ، ومنها الوظائف التي تتعلق بالدولة : كالتعليم ، والعمل على الزكاة ،
والقضاء وما يشبهها ، وغير ذلك من الأعمال .
انظر إجابة السؤال رقم : (107144) .

ولم يكن الواحد منهم يجلس
كَلّا على أصحابه بدون عمل يعمله ، أو يسأل الناس وهو يقدر على العمل ، وقد روى
البخاري (1471) عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ
النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ
حَبْلَهُ ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ ، فَيَبِيعَهَا ،
فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ
أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ) .

ولم يمنعهم طلب العلم
والصحبة الشريفة عن العمل والتكسب ، وكان كثير منهم من يتعلم العلم والقرآن
ويتدارسونه بالليل ، ثم يزاولون عملهم بالنهار ، ويتكسبون منه وينفقون منه في سبيل
الله ويتصدقون ، وقد ثبت ذلك عن جمع من خيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وفضلائهم ، لم يشغلهم في ذلك شأن عن شأن :
روى البخاري ومسلم (677) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : جَاءَ نَاسٌ إِلَى
النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالُوا : أَنِ ابْعَثْ مَعَنَا

رِجَالًا يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ
رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، يُقَالُ لَهُمْ: الْقُرَّاءُ ، فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ
، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ ،
وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِيئُونَ بِالْمَاءِ فَيَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ ،
وَيَحْتَطِبُونَ فَيَبِيعُونَهُ ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لِأَهْلِ
الصُّفَّةِ وَلِلْفُقَرَاءِ ، فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ ، فَعَرَضُوا لَهُمْ ، فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا
الْمَكَانَ ، فَقَالُوا : اللهُمَّ ، بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ
لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ ، وَرَضِيتَ عَنَّا ، قَالَ : وَأَتَى رَجُلٌ
حَرَامًا ، خَالَ أَنَسٍ مِنْ خَلْفِهِ ، فَطَعَنَهُ بِرُمْحٍ حَتَّى أَنْفَذَهُ ،
فَقَالَ حَرَامٌ : فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى
اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ : (إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا،
وَإِنَّهُمْ قَالُوا: اللهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ
فَرَضِينَا عَنْكَ ، وَرَضِيتَ عَنَّا) .

ولم يكن حالهم كحال الناس
اليوم من الإقبال على الدنيا والانشغال بها ، بل كانوا على حال عظيم من الزهد في الدنيا ، والرغبة في الآخرة ، فلا يعملون لها العمل كله ، ويعطون الهم كله ، بل كانوا يكفون بها أنفسهم عن الناس ، ثم لا ينشغلون بشيء من أمرها ، عن أمر الآخرة .

قال الحسن البصري رحمه الله
، يصف حالهم رضي الله عنهم : " أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْرِضُ
لِأَحَدِهِمْ حَلَالَهَا ، فَيَدَعُهَا ، فَيَقُولُ : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي عَلَى
مَا أَنَا مِنْ هَذِهِ ، إِذَا صَارَتْ فِي يَدَيَّ " ، كما في " الزهد " لابن
المبارك (1/ 178) ..
وقال أيضا : " لَقَدْ أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا لَا يَفْرَحُونَ بِمَا أَقْبَلَ
عَلَيْهِمْ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلَا يَأسونَ عَلَى مَا أَدْبَرَ مِنْهَا "، كما في
" حلية الأولياء " (6/ 270) .
وقال : " أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا كان أَحَدِهِمْ أَشَحُّ عَلَى عُمُرِهِ مِنْهُ عَلَى
دِرْهَمِهِ " ، كما في " شرح السنة " (14/ 225) .

وهذا كله بخلاف حال الناس
اليوم ، من الانشغال بالدنيا عن الآخرة ، كما هو مشاهد معلوم .

ثانيا :
أوقات أعمالهم تختلف بحسب طبيعة عمل كل منهم ، وإن كان غالب عملهم يكون بالنهار ، وبالليل يتفرغون لصلاة الليل وتلاوة القرآن والاستغفار ، وخاصة في الثلث الأخير من الليل ، ولم يكن أمر الناس في ذلك الزمان ، مما يقتضي عملا بالليل ، إلا أن يكون أمرا نادرا جدا ، بخلاف ما تقضيه طبائع الأمور ، وتعقد الحياة اليوم .

وليس في مجرد العمل بالليل ،
أو العمل لساعات طوال : مذمة ، ما دامت بالناس ضرورة أو حاجة إلى ذلك ، وسواء كان ذلك لأجل مصلحة عامة للناس ، كما هو حال الشُرَط ، والأطباء ، ونحو ذلك من المهن التي لا يستغني الناس عن وجود من يسعفهم فيها ، ويقوم بحاجتهم إليها ليلا ونهارا .

وإنما مرد ذلك : إلى انشغال العامل في ذلك عن أمر دينه ، بأمر دنياه ، أو يحمله على زيادة عمله ، ومواصلة الليل بالنهار ، فرط طمع وتعلق بالدنيا ، واستكثار منها ، لا قضاء حاجة ، له ، أو لغيره من الناس .

ورغم ما كانوا عليه من العمل
، والمهن الشاقة ؛ فإنهم كانوا أعظم الناس قياما بين يدي ربهم ، وأحسنهم إحياء لليل ، ومناجاة لرب العالمين : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) السجدة/ 16 .

روى النسائي في " الكبرى "
(11855) عن بِلَال بْن سَعْدٍ ، قَالَ : " أَدْرَكْتُهُمْ يَشْتَدُّونَ بَيْنَ الْأَغْرَاضِ، [يعني : يتسابقون في الجري] ، وَيَضْحَكُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ ، كَانُوا رُهْبَانًا " .
وروى أحمد في " الزهد " (ص231) عَنِ الْحَسَنِ قَالَ : " وَاللَّهِ ، لَقَدْ أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا ، وَصَحِبْتُ طَوَائِفَ مِنْهُمْ ، مَا كَانُوا يَفْرَحُونَ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلَهِيَ كَانَتْ أَهْوَنَ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنَ هَذَا التُّرَابِ ، كَانَ أَحَدُهُمْ يَعِيشُ خَمْسِينَ سَنَةً لَمْ يُطْوَ لَهُ ثَوْبٌ قَطُّ ، وَلَا نُصِبَ لَهُ قِدْرٌ ، وَلَا جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَرْضِ

شَيْئًا ، وَلَا أَمَرَ فِي بَيْتِهِ بِصَنْعَةِ طَعَامٍ قَطُّ ، فَإِذَا كَانَ
اللَّيْلُ : فَقِيَامٌ عَلَى أَطْرَافِهِمْ ، يَفْتَرِشُونَ وُجُوهَهُمْ ، تَجْرِي
دُمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ ، يُنَاجُونَ رَبَّهُمْ فِي فِكَاكِ رِقَابِهِمْ ،
كَانُوا إِذَا عَمِلُوا الْحَسَنَةَ دَأَبُوا فِي شُكْرِهَا ، وَسَأَلُوا اللَّهَ
أَنْ يَقْبَلَهَا ، وَإِذَا عَمِلُوا السَّيِّئَةَ أَحْزَنَتْهُمْ ، وَسَأَلُوا
اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَهَا ، فَمَا زَالُوا كَذَلِكَ عَلَى ذَلِكَ " .

ثالثا :

روى الإمام أحمد (17309) – وصححه الألباني – عن عَمْرَو بْن الْعَاصِ رضي الله عنه
قال : بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ
: خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ ثُمَّ ائْتِنِي ، فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ
يَتَوَضَّأُ ، فَصَعَّدَ فِيَّ النَّظَرَ ثُمَّ طَأْطَأَهُ ، فَقَالَ إِنِّي
أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ ، فَيُسَلِّمَكَ اللَّهُ وَيُغْنِمَكَ ،
وَأَرْغَبُ لَكَ مِنْ الْمَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً .
قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ ،
وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !!!
فَقَالَ : يَا عَمْرُو ؛ نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ ، لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ !!

فالمذموم ، الذي هو عبد
المال والدنيا : إنما هو من جعل الدنيا أكبر همه ، وانشغل بها بالليل والنهار ،
وأنفق ساعات عمره في طلبها ، وعكف عليها ، يجمع المال من حله وغير حله ، تكثرا
ومباهاة ورغبة في متاع الدنيا الزائل ، لا يصل به رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقا ؛
قال النبي صلى الله عليه وسلم : (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ
وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ
يَرْضَ) رواه البخاري (6435) .
قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :
" قَوْله (عَبْد الدِّينَار) أَيْ طَالِبه الْحَرِيص عَلَى جَمْعه الْقَائِم
عَلَى حِفْظه , فَكَأَنَّهُ لِذَلِكَ خَادِمه وَعَبْده . قَالَ الطِّيبِيُّ : قِيلَ
خُصَّ الْعَبْد بِالذِّكْرِ لِيُؤْذَن بِانْغِمَاسِهِ فِي مَحَبَّة الدُّنْيَا
وَشَهَوَاتهَا ، كَالْأَسِيرِ الَّذِي لَا يَجِد خَلَاصًا .

وَلَمْ يَقُلْ مَالِك الدِّينَار وَلَا جَامِع الدِّينَار ؛ لِأَنَّ الْمَذْمُوم مِنْ الْمِلْك وَالْجَمْع : الزِّيَادَةُ عَلَى قَدْر الْحَاجَة . وَقَوْله (إِنْ أُعْطِيَ إِلَخْ) يُؤْذِن بِشِدَّةِ الْحِرْص عَلَى ذَلِكَ .
وَقَالَ غَيْره : جَعَلَهُ عَبْدًا لَهُمَا لِشَغَفِهِ وَحِرْصه , فَمَنْ كَانَ عَبْدًا لِهَوَاهُ ، لَمْ يَصْدُق فِي حَقّه (إِيَّاكَ نَعْبُد) ؛ فَلَا يَكُون مَنْ اِتَّصَفَ بِذَلِكَ صِدِّيقًا " انتهى .

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله :
" مِن الناس من يعبد الدنيا ؛ أي: يتذلل لها ويخضع لها ، وتكون مناه وغايته ، فيغضب إذا فقدت ، ويرضى إذا وجدت ، ولهذا سمى النبي – صلى الله عليه وسلم – من هذا شأنه عبدا لها ، وهذا من يعنى بجمع المال من الذهب والفضة ، فيكون مريدا بعمله الدنيا " انتهى .
"مجموع فتاوى ورسائل العثيمين" (10/ 724) .

وينظر للفائدة : إجابة السؤال رقم : (143194) .
والله أعلم .